مساجين. امّا أنا، فحرّ أستطيع ان أرحل متى أردت، او أقيم متى شئت...».

وهو أراد ان يتوصل للقول ان العربي جوّال، لا يرتبط بالارض، وليس له وطن؛ فلماذا يعذبه ضميره اذا طردهم من فلسطين ؟

استمر المؤلف يتحدث بلسان جوزيف عن آثار التعذيب النازي باليهود، قال: «أغلقت عينيّ وأخذت أتخيّل ما كنت أفعل بالبشر الذين جعلوا دينا على هذا الحال. لو اني اضع يدي عليهم». ثم قال: «حتى الآن، وبعد ان استرديت منطقي، متى سنحت فرصة الانتقام سأضع يدي عليها ولو خالفت عقلي وقناعاتي». ثم أعطى مثلاً يشرح فيه وضع اليهودي في فلسطين. حادثة رواها له صديق صقلّي «عن فلاح صقلي حاول قتل عشيق زوجته فوضع في السجن خمس سنوات. فلما انتهت، خرج للتو الى العشيق، فقتله وقضى بقية عمره كلها سجيناً وسعيداً...». وأضاف على هذه الرواية: «يبدو ان الجوّ او الاحتكاك بهذه الارض ' المخردقة ' بمغاور الاجداد يثير مثل هذه العواطف». ثم قال: «اذا لم أعضّ، فان غضبي سوف يعضّ احشائي نفسها. من اجل هذا كان عرقنا كله مقروحاً في أبشع المعاني حرفية».

وقال في الرواية ان المعركة في فلسطين كانت معركة بين حرس الأشجار واعدائها: «كانت تلك أشجاراً دخيلة اذاً (الفستق الحلبي!)، أشجاراً عبرية، كلّ من جذوعها السامقة ينغرز كشوكة في عين كل وطني عربي. ولذلك كانوا ينظمون ليلاً غزوات لقطع الاشجار الفتيّة وانتزاع الغراس من الارض، وتقوم خلال الثورات معارك دامية بين حرّاس الأحراج العبرانيين وذبّاحيهم العرب».

في الرواية أمران أساسيان أراد ان يبرزهما كوستلر: أولهما، ان العرب، في العصر الحاضر، بلا تقاليد، أو ذوو تقاليد من عصور الاحتلال المفرط باضطهاد الأمم، والذي لم يقاوموه بضراوة، وانما تلاءموا معه احتيالاً ونفاقاً. الأمر الثاني، ان اليهود يبنون تقاليد ترتكز، أساساً، على تضحيات المكابيين العنيدة والدوغما التوراتية وما فيها من اخبار وأماكن؛ لكن بايمان جديد يكاد يكون علمانياً.

وبعد ان مرّ بحياة العرب، نقطة نقطة، حتى المطعم العربي وحتى المحاكمة التي يحاكم فيها قروي عربي لأنه كان يستخدم، على الرغم من الانذار، بغلته المريضة المقروحة دون ان يعالجها، تأتي المقارنة مع المطعم اليهودي والمقهى اليهودي ومع ناج من الغرق رمى نفسه في البحر من سفينة للمهاجرين (الفارين من أوروبا) فسبح حتى الشاطىء، وعندما وصله أغمي عليه، ورآه، طبعاً، عربي، فوشى به الى الشرطة، فاقتادته الى التحقيق، فالمحكمة، يختاره كوستلر من نزلاء داشو والناجين من المذبحة الهتلرية. ترى كيف «رمط» منها ؟

العربي في الرواية يناور ويكذب، ويخاف من رقيب الشرطة، فيما يقف خرّيخ داشو برجولة ودقّة وشجاعة. لم أتصور ان كاتبا له أهمية يتهافت الى هذا الدرك.

بعد هذا كله، نصل الى حادثة الرواية الرئيسة. كيف قتلت دينا ؟ دينا المسكينة التي أصيبت بتعقيد نفسي بين يدي التحقيق النازي. دينا التي تضيق أنفاسها اذا ذهبت رياح الخماسين ويهدىء لواعجها القمر الصافي. دينا التي رفضت الزواج وأولعت بالتأمل في مقابر جدودها قبل هدم الرومان لمعبد سليمان.

في اثناء احدى نزواتها، خرجت من سهرة مع بعض رفاقها، وفي موجة من الغيرة سببها انها لم تستطع الزواج (من عقدتها النفسية) من حبيبها الذي مني بغيرها، فذهبت الى الاسطبل وأيقظت الفرس «سالومي»، وامتطتها، ونزلت الوادي لزيارة قبر جد من الجدود.

كانت حوادث الاعتداء العربية كثيرة (ولو ان تأثيرها لا يؤبه له)؛ لكن دينا لم تتراجع؛ على العكس، كانت أمثال هذه الحوادث تزيد في رغبتها بالمغامرة.

منذ ان اتجهت باتجاه الوادي تحوّلت ريح الخماسين الى ما يشبه الصبا الناعمة. غير انها التقت، في سبيلها، فلاحاً لم يخف عليها انه من الطابغة، وقدّرت من ثنيّتيه المفقودتين ومن عينه الضائعة انه ابن